

الآداب الأجنبية

بني الآداب الإنجليزية

رسالة صمول جنسن^(١)

إلى لورد تشستر فيلد^(٢)

بقلم

مهدي علام أستاذ التربية بدار العلوم

تعريف بالرسالة:

تعد هذه الرسالة درة من درر الآداب الإنجليزية، تتعاقب عليها الأيام فلا تزيد الناس إلا إعجاباً بها وحرصاً عليها. ولعل الأفضل ألا أطريها أكثر مما فعلت، ولعل من الخير أن أتركها تتحدث اليكم عن نفسها لتصل إلى مواضع الإعجاب من قلوبكم، ومواطن الإقناع من عقولكم. وحسبي أن ينالني شرف نقلها إلى لغتنا الكريمة، وحسب «صحيفة دار العلوم» أن تكون أول مطبوع عام ينشرها بالعربية الفصحى.

ولهذه الرسالة قصة نقصها، إيضاحاً لها، وعونا على تذوقها: نشأ صمول جنسن فقيراً معوزاً، ولكنه كان أديباً فخلاً كاتباً كان

(١) Samuel Johnson (١٧٨٤ - ١٧٠٩)

(٢) Lood Chesterfield (١٧٧٣ - ١٦٩٤)

قوى التعبير ، حسن الديباجة ، متهمًا لا ذعًا في تهكمه ، وكان خطيبًا مفوهًا ،
لبقا ، لم يصرع مرة في مساجلاته . وكان إلى ذلك واسع الإطلاع في
متن اللغة . وشرع الكاتب يؤلف «معجمًا» في اللغة الإنجليزية ، هو أول
معجم طمّوح في تلك اللغة .

وكان للعلم والأدب في ذلك العصر حماة وأولياء من أعيان البلاد
وأشرافها ، فكانوا يرعون بجاههم ويساعدون بمالهم ، الشعراء والكتاب
والمؤلفين ، على مثال ما كان في بعض عصور الأدب العربي .

وأراد جنسن أن يهدي معجمه إلى ولي من هؤلاء الأولياء ، هو
لورد تشستر فيلد ؛ لينال بذلك عطفه وموارثته في إخراج الكتاب
ونشره . غير أن هذا الولي كان في عطفه على العلماء — على ما يظهر —
أقرب إلى الرياء منه إلى الأخذ بنصرة العلم والأدب ؛ ذلك إلى أن جنسن
لم يكن ، على علمه وأدبه ، من رجال المجتمع الراقى . فقد كان في أخلاقه
خشونة ، وفي حديثه جفاء واعتداد بالنفس ، وفي محاضراته صلف وكبرياء ،
وفي صوته عنجبية ، وفي ثيابه رثاءة تنبؤ عنها مجالس الخاصة .

ولقد أعلن إهداءه الكتاب إلى ذلك العظيم فنقحه ببضعة جنهات ،
ولكنه — مع ذلك — لم يحسن استقباله في قصره وبين ضيفه . لأن ذلك
الشريف لم يشأ أن يرى طنافسه مبرقشة بوحل لندن ، ولا أن يرى حساءه
ونخوره تثر يمينا وشمالا ، على الحلل الفاخرة التي يرتديها ضيفانه من
رجال الطبقة الراقية وسيداتهما ، بيد ذلك الأديب المذهول المحتبل ، الذي
كان مفزعا في حركاته . مقلقا بالأصوات الخشنة التي يطلقها من حنجرتة ،
والذي كانت ثيابه تجعله شبيها بالمجدار .

ولقد ظل جنسن يزور وليه زما ، حتى صدف عنه الخدم ، وأعرضت
عن استقباله الدار ؛ فولى وجهه عن القصر المنيف ، ولكن إلى العمل
الشريف ، والجهد العنيف .

وبعد سبعة أعوام قطعها جنسن في دأب واضطلاع ، أخرج للناس معجمه العظيم . وهنا أدرك تشستر فيلد شرف إهداء هذا العمل الجليل إليه ، وأراد أن يسترد خمداً كان قد أضاعه ، وأن يشتري لسان ثناء كان قد فرط فيه ، وأن يظل برعايته رأساً أصبح بعد احتمال وهج الشمس وهاطل المطر في غير حاجة إلى ظلة ؛ فكتب في مجلة « الدنيا » ^(١) مقالين يقرظ فيهما معجم جنسن . فرد عليه المؤلف بالكتاب التالي :

٧ فبراير سنة ١٧٥٥

مولاي !

لقد أبلغني صاحب مجلة « الدنيا » منذ قريب أن المقالين اللتين نشرتهما تقرظاً لمعجمي هما بقلم نخامتكم . وإن في هذا لشرفاً يعجزني عن تقبله ، كما يقعدني عن شكره ، أتى لم أعود قبول صنائع المعروف من العظماء . إنني حين زرت نخامتكم - على إثر قليل من التشجيع - أسرنى ما أسر سائر البشر من سحر بيانكم ، ولم أستطع إذ ذاك أن أفطم نفسي عن الأمل في أن أفخر بأنني أصبحت لا يعصى لي الدهر أمراً ، وبأنني قد أنال تلك الرعاية التي رأيت الدليل تقتل في سبيل الحصول عليها . ولكنني ألفت زيارتي لا تقابل إلا بترحاب الزاهدين فيها ، فلا الكرامة ولا التواضع كانا يسمحان إذن باستمرارها . إنني حين خاطبت نخامتكم ذات مرة على مسمع من الجمهور ، قد استفدت كل ما يعرفه من أدب الخطاب أستاذ معتكف غير خبير بأداب العظماء ، ولكن ليس في الدنيا من يرضى بأن يكافأ على جهده بالتغاضي ، مهما يكن ذلك الجهد ضئيلاً .

سبعة أعوام ، يا مولاي ، قد تلت منذ اليوم الذي كنت أنتظر فيه

في دهلين داركم، أو أنحى فيه عن عتباتكم، وأنا في خلال ذلك الزمن أدفع بعملى فوق أشواك الصعوبات التى لا أرى فائدة في الشكوى منها. وهأنذا قد وصلت آخر الأمر بكتابى إلى حافة النشر، من غير يد مساعده، ولا كلمة تشجيع، ولا ابتسامه صنيع. ألا إننى لم أترقب مثل تلك المعاملة لأننى لم أستظل في حياتى برعاية ولى. لقد قدر آخر الأمر لرأى العم، في فرجل، أن يعرف الحب، ووجده من سكان الصخور^(١).

أليس ولى العمة، يامولاي، هو ذلك الذى ينظر بغير اكتراث إلى رجل يصارع المياه طلباً للنجاة من الغرق، فاذا ماشارف الشاطئ، عاقه بتقديم يد المساعدة إليه؟ إن هذه الرعاية التى تفضلت بها على عملى لو كانت مبكرة لكانت طيبة، ولكنها قد تأخرت حتى أصبحت لا بألبها، ولا أستطيع أن أستمتع بها، قد تأخرت حتى أصبحت منعزلاً، ولا أستطيع أن أعلنها. قد تأخرت حتى أصبحت معروفاً، وفي غير حاجة إليها. وعسى ألا يكون من نكران الجليل ألا أعترف بيد لم ينلني خيرها، أو ألا أعلن للناس أنتى مدين لذى جاء بما أقدرتنى عناية الله على النهوض به وحدى. أما وقد وصلت بعملى إلى هذه المرحلة، غير مستمد عوناً من رعاية العلم وأوليائه إلا القليل القليل، فلن أياس من إتمامه بأقل مما نلت من عونهم — إن كان في الامكان عون أقل مما منحونى، فأتى قد استيقظت، منذ زمن طويل، من حلم الأمل الذى كنت به معتزاً نفوراً.

مولاي
من خادمتكم المطيع

صمول جنسن

وبعد هذا أعلنت هذه الرسالة انتصار دولة الأدب على دولة المال،

(١) الإشارة هنا إلى حادثة في رواية لاتينية.

وحاجة ذوي الجاه إلى شرف العلم، وحقت صدق الحكمة العربية القائلة
« فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً مألديه . »
أما تهكمها فانه يتحدث عن نفسه : عف نزيه، ولكنه مر لا ذع، فيه
عظمة وكبرياء، ولكنه يحمل فيهما حق الجزاء .

ولقد اشتهرت عبارات هذا الكتاب بين كتاب الإنجليز حتى إن
أعظمهم غير مدافع، وأقدرهم بدون استثناء، برنرد شو، قد اقتبس إحدى
عبارات جنسن . ففي ليلة من ليالى نوفمبر سنة ١٩٢٦ كنا نستمع إليه في
لندن يحاضرنا في « الدولية المثقفة » وكنا قد اطلعنا في الصحف في صيحة
ذلك المساء، على أن برنرد شو قد منح جائزة نوبل، وأنه ردها . فقبل أن
يبدأ محاضراته طلبنا إليه أن يكلمنا عن سر رفضه جائزة نوبل؛ فألقى كلمة
بليغة قال فيها إنه يستمتع بشهرة أكثر مما تحمل صحته . وإنه يرى أن
جائزة نوبل إنما شرعت لتشجيعا للعلماء والأدباء الناهضين؛ أما هو فانه
يرى نفسه قد جاوز هذا الحد؛ وأن هذه الجائزة في طريقه الآن بمثابة
الحبل الذي يعوقه وقد بلغ الشاطئ . ومهما كانت حاجته إلى هذه الجائزة
حينما كان يصارع الحياة طلباً للنجاة، فانه لا يستطيع أن يقبلها الآن وقد
استوى على قدميه .

وشبه بهذا الكتاب في أسلوبه كتاب حفي ناصف بك إلى السيد
توفيق البكري حينما تغافل السيد عن حسن استقباله . ولو أتى كنت
أكتب في غير « صحيفة دار العلوم » لاقتبست ذلك الكتاب أو فقرات
منه، أما وأنا أكتب لمن هم أعلم به مني تخليق بي ألا أعتدى على مدى
اطلاعهم، وأن أكتفى بالإشارة إلى قطعة أدبية هي بعض ما يجري على
ألسنتهم ؟